تجليات الحداثة في شعر سلطان الزغول

د. عماد عبدالوهاب الضمور/ أستاذ مشارك
جامعة البلقاء التطبيقية/ كلية عمّان الجامعية

ملخص

تأتي هذه الدراسة محاولة للكشف عن تجليات الحداثة في قصائد الشاعر الأردني سلطان الزغول بكلّ أبعادها الخصبة، وانعكاساتها الفنية، وما ينتجه الشعر من محاولة لإنقاذ الأنا المحاصرة وصولاً إلى نوع من المصالحة مع النفس، ومع العالم الخارجي، وذلك بالتنفيس عن المكبوت الشعري، وكسر حاجز الصمت، ليلتحم بأبعاد إنسانية أكثر توهجاً، وارتباطاً بالواقع .

إذ يتابع سلطان الزغول في ديوانه الثاني(ارتعاشات على جسد الخريف) الصادر عام 2007م، ما اختطه لنفسه في ديوانه الأوّل (في تشييع صديقي.. الموت) الصادر عام 2004م من تصعيد لفاعلية المفردة اللغوية، وتمرّد مقصود على النسق التعبيري للغة؛ ليمتّع متلقيه، ويدهشه في الوقت نفسه، بعدما ابتعد بتراكيبه اللغوية عن مألوفية الواقع، ليلامس روحانية اللغة، وتمظهراتها الدلالية المعبّرة. إنّ ولع الشاعر بصخب إيقاع الحياة، ورغبته في الانسلاخ من هذا الواقع منحه رؤيا واضحة انطلق منها في إكساب مفرداته طابع التفجّر الدلالي، والبوح الشجي، فضلاً عن محاولتة سبر أغوار الحياة، والاستناد إلى الموت بوصفه حياة قائمة.

الكلمات المفاتيح:
الحداثة، سلطان الزغول، شعر.

مقدمة

إنّ مواجهة خطاب القصيدة الحداثيّة في الأردن، يحتاج إلى نوع من المغامرة النقدية موازية للمغامرة الإبداعية التي تحاول إيجاد مداخل متعددة، تناسب شعريّة النص الحداثي من جهة، وانعكاساته الفكرية من جهة أخرى، وذلك بمحاولة استجلاء قوانين التلقي التي يطرحها الخطاب ذاته، بهدف الكشف عن خصوصيته النصيّة من ناحية، وبيان طبيعة القوانين الإبداعية المنتجة للمعنى الشعري من ناحية أخرى.

فالكلمات لم تعدّ وسائل اتّصال حياديّة المعنى، بل صارت ذات دلالة إيحائيّة، وذلك بحضورها المادي المجسّد القادر على التشكيل البصري للكلمات، وجعلها ذات أبعاد روحيّة خصبة، تؤجج المشاعر، وتحمل المتلقي إلى اكتناه أسرار الحياة، وتقلباتها المستمرة.

إذ خضع النص الشعري المعاصر لتحولات فكرية سمحت لمسافة التوتر بالتبلور من جهة وللمعاني بالتدفق من جهة أخرى، ممّا يُنتج قوة تؤسس للأشياء قوتها الذاتية الخالصة، وتسهم في إشاعة نوع من التجانس بين مفردات النص، التي لا تلبث أن تنكسر مرة واحدة لتخلق فجوة دلالية، وتبعث هزة عاطفية في النفس.

لقد تعددت المناهج النقدية في العصر الحديث التي حاولت إضاءة العمل الأدبي منطلقة في ذلك من أرضية نظريّة وبيستيمولجية، وهي مناهج حاولت تحديد دلالة الأثر الأدبي، وذلك اعتماداً على تفكيك الخطاب الأدبي كما خطّه تودوروف، وبارت، وياكبسون، وغيرهم من أعلام النقد الأجنبي،

ممن أرسوا دعائم التحليل النصي اعتماداً على علاقة الدال بالمدلول، وتفعيل إحالات النص اللغوية، ورؤاه الفكرية ذات الأبعاد الدلالية الواضحة، دون إنكار لما سجله التراث النقدي من إيحاءات نصيّة خصبة. تهدف هذه الدراسة إلى قراءة نقديّة جادة لطبيعة الخطاب الشعري الحداثي في قصائد الشاعر الأردني سلطان الزغول(الزعبي، ب.2014: 126)، واقتناص ما تنم عنه هذه القصائد من رؤى حداثيّة، بكلّ ما تحمل من إجراءات تكوينيّة، والكشف عن مغامرات الشاعر التجريبية وصولاً إلى استقراء كلي للخطاب الشعري اعتماداً على لحظة التلقي من ناحية، وكينونة المتلقي من ناحية أخرى. وقد تجلّت الحداثة في شعر سلطان الزغول من خلال العناصر التالية:

1 ـ حداثة العنوان

تعكس تجربة الشاعر سلطان الزغول في ديوانه الأوّل (في تشييع صديقي الموت) الصادر عام 2004م ملمحاً تصعيديّاً في جانب الموضوع الشعري، الذي جعله عتبة نصيّة ينطلق منها ديوانه، إذ كشف عنوان الديوان عن اغتراب الشاعر، ونزوعه نحو التأمل الذي يفضي إلى سدّ الفراغ الذي أحدثته قطيعة الإنسان المعاصر مع واقعه، وهي قطيعة طالما امتدّت في نصوص الحداثة الشعريّة؛ لتعلن عن سوداوية الواقع، وسحقه لرغبات الآخرين. إنّ سلطان الزغول في محاولته الشعريّة الأولى يسعى إلى نزع فتيل المواجهة مع الواقع، وذلك بتشييع الموت، ممّا يعكس إقصاء لكلّ الضغوط التي يحياها الشاعر، وفرض إيقاع جديد للحياة، إنّه إيقاع الموت، والنزف، والضياع، الذي ما كان ليوجد لولا اتّساع الفجوة بين الإنسان وواقعه. يبعث الشاعر من خلال ديوانه الثاني(ارتعاشات على جسد الخريف) الصادر عام 2007م ما يشي بهذا التوافق مع الذات، والتمرد على الحياة، إذ اختار

من فصولها الخريف بكلّ ما يحمل من فعل الانتهاء، والتلبس بالحياة الإنسانية؛ لذلك جاءت إضافة كلمة (الخريف) إلى كلمة (الجسد) تعبيراً واضحاً عن هذه الحالة الوجودية التي تعتري الحياة البشرية.

وما الارتعاشات على جسد الخريف إلا صورة لحالة القلق الوجودي التي يحياها الإنسان، وصراعه الأزلي مع الموت. إذ تبدو الاستجابة الشعريّة للون الأصفر الذي يبعثه فصل الخريف ذات طابع معقد، ومغرق في التفكير الوجودي، فالشاعر يستثير كلّ إمكانات فصل الخريف؛ لتجسيد تجربته الشعورية، ومنحها قدراً أكبر من التحفّز الذهني الذي يُغني عملية التلقي بأدوات خطاب جديدة.

إنّ تعدد سياقات اللون الأصفر الخصبة تتوافق مع العنوان الذي جعله سلطان الزغول لديوانه؛ فهو لون يستخدم " مع الذبول، والنحول، والخوف"(عمر، أ. 1997: 215) فيأتي للتعبير عن حالة العجز، والوهن التي انتشرت في جسد الأمة.

وقد يحمل اللون الأصفر دلالة المرض المباشر، ممّا جعله يعكس معالم الضعف والانهزام، فضلاً عن العدمية والفناء، فهو ذو دلالة مباشرة على الموت، وضياع الحياة، وعدم دوام الحال، كما في قصيدة (خريف) حيث يقول (الزغول، س. 2007: 18):

في الطريق إليكِ أضعت دمي
هجرت كهوفي الحميمةْ

لأقطف فجراً على راحتيك
أتيت بنصف خريفٍ ونصف شتاء

إنّ نصوص الحداثة الشعريّة ذات ميل واضح لمثل هذا التعدد الدلالي، والإيهام بالمعنى، بل والغموض أحياناً، لكن ما يلمسه المتلقي في شعر سلطان الزغول هو طواعية المفردة الشعريّة للمعنى، وقدرتها على طرق وجدان المتلقي بعيداً عن تعقيدات اللغة، وانغلاق رموزها، فضلاً عن كشفها عن حالة تأجج نفسي، وانفلات وجداني، يعكس صدامية الذات مع الواقع. وهذا يعني أن الحداثة الشعريّة تحمل طابع الإيحاء، والإشارة إلى المعنى دون كشفه، ممّا يجعلها تبتعد عن طابع التهويم، والمبالغة التعبيرية، وإقصاء المعنى كما هو في بعض نصوص شعراء الحداثة، " وهكذا تظهر قيمة الشعر باعتباره نصوصاً تضيء ما غار داخل التجربة، واكتنه فيها. وتُظهر قدرته في اختزان دلالات عديدة ترمز إلى هذا المنحى أو ذاك من مناحي الحياة"(جابر، ي. 1991:79).

أمّا ديوان(في تشييع صديقي الموت) فيمدّ المتلقي بفسحة تأويليّة لمعاينة اشتغالات العنونة في النص الشعري من جهة، وهي بوح شجي لذات نازفة تبحث عن وجودها من جهة أخرى، فضلاً عن كونها امتداداً لخطاب الحداثة الذي يُمارس فعل الإيحاء، والمراوغة أحياناً في التعبير عن الفكر، ممّا يضع المتلقي منذ لحظة البداية أمام مواجهة حقيقة لتجربة شعريّة ذات طابع خاص.

وما تشييع الشاعر للموت الذي نعته بالصديق إلا بداية التصعيد في المواجهة مع المتلقي، إذ كيف للموت أن يكون صديقاً، وهو عدو الإنسان الأزلي، وكيف به أن يُشيّع وهو قاهر الإنسان على مرّ السنين؟.

إنّ الخطاب الشعري يستمد كينونته من تموضعه النصي في قالب لغوي مغاير للغة المعجمية التي تسعى إلى المصالحة مع المتلقي، لكن اللغة الشعريّة لا تؤمن بنسقية التراكيب اللغوية، ونسقيّة الخطاب، بل إلى كبح جماح المتلقي منذ اللحظة الأولى؛ لتضعه أمام مسؤولياته في التلقي، والتأويل، إذ يمتلك الشاعر رغبة واضحة عند تسميته للديوان، فيمارس ضغوطه على المتلقي، ليندمج في عالمه، ممّا يكسب الخطاب فاعلية، لا تلبث أن تنتقل عدواها إلى النص الشعري، حيث يقول(الزغول، س. 2004: 97):

مُشْرَعٌ للموت بابي

أرتدي عِهْن الممّرات الوئيدة
ودمي ينقّطها
أحتفي بالنّصْل يأكلني بطيئاً
أستشفُّ الأغنيات
أرتدي موتي
يرتديني الموت
أتردّى.. لا أفيقُ،
يحتسيني.. لا ،
أحتسيه.. أتلّمظ
بعضي يصفّق..

بعضي يمزّقُ

فالموت من أكثر الأمور الغيبية مثاراً للحيرة، ومكمناً للضعف، والعجز البشري، لذلك حاول الأنسان منذ فجر التاريخ نسج الأساطير حوله، بعدما عجزت قدرته العقلية المحدودة من سبر أغواره، أو محاولة تفسير كيفية حدوثه، أو تعطيل آثاره المأسوية، فهو" حقيقة لا تتغير أبداً، تُشكّل خاتمة الحياة، والوجود المادي، وما هو معروف، ومدرك"(درو، أ. 1961: 149). لقد استطاع الشاعر رسم ملامح شعريّة خاصة لصورة الموت، وذلك بالعزف على إيقاع الذات الحزينة، والمنهكة من إيقاع الحياة الرتيب، فالقلق الوجودي واضح في النص، فضلاً عن وضوح الطابع التأملي الذي ينزع إلى تصوير النفس المكلومة.

2 ـ حداثةاللغة.

إنّ دخول الشاعر في تجربة شعريّة خاصة تتوحّد فيها الذات مع اللغة؛ لتحقيق نوع من التوازن بين الذات بكلّ ما تحمل من آلام، وأحزان، وبين الواقع المتسلّط هو حصيلة حالة من الصدام مع الواقع كان من نتائجها تشييع الموت، حيث يقول (الزغول، س.2004: 100):

قبل أيّام من التصالح مع صديقي الموت
كنت أدقُّ قرب المدخل القبليّ للبيت
عرانيسَ من السمّاق في تموز
وشكوتُ هذا الحرّ
أيّ تموز.. الْطُفْ قليلاً...
سبعون عاماً ما شكوتك
في الرِجَاد وفي الكروم

وفي الأراضي البورِ
كنتَ تصليني وأصبرُ
أصحو مع الفجر لأعجنَ
ثم أمضي لأملأ
من عيون الهُوْنِ ما يكفي..
أربعين حصاداً وزوجي
وخمسة من الأولاد كانوا ستّةً
قبل ما يأخذ ربّك الولد الكبيرْ..

فالفلسفة الوجودية ذهبت إلى أن الموت هو تصالح الروح مع ذاتها، و"أن الإنسان منذ البداية محتضر"(شورون، ج.2000: 237). وهذا ما جعل مفهوم الموت في العصر الحديث يتشعّب، ويتجاوز بعده المادي، الذي يقوم على مفارقة الروح للجسد إلى مفهوم أعمق يشمل" آخر طريق الحقيقة الإنسانية على هذه الأرض"(رفقة، ف.1973: 25).

إنّ الموت هو بؤرة المشهد، ووسيلة الشاعر للانطلاق نحو الواقع، يتمظهر في تشكلات اللغة، ليبوح بمكنون النفس، ويكشف عن معاناتها المستمرة. ويرتبط بشعريّة الموت في قصيدة سلطان الزغول نزوع الشاعر إلى الحديث عن القبر، ورسم صورة معبرة له، ممّا يعكس حالة الشاعر القلقة، ورغبته في الخلاص من أسر الواقع، وعذاباته، إذ إنّ "غاية الشعراء من تقديم هذه الصورة قد تكون نفسيّة، بهدف التخفيف عن النفس من هول مصيبة الموت بمعرفة أسراره، أو أدبية من باب تسابق الشعراء في تقديم الجديد، أو خلقية تتمثل في تقديم الموعظة، والتذكرة، والتنبيه إلى المصير، أو فكرية تعبّر عن فكرة أو رأي ما... وقد

يأتي التعبير عن ذلك في سياق أدبي، يضطر الشاعر فيه إلى الحديث عن شيء من عالم الأموات حين تحتاج وحدة العمل الأدبي إلى ذلك"(عصلة، أ.2000: 397).

إنّ رغبة سلطان الزغول في رسم صورة للقبر نابعة من عشقه للموت، وسعيه إلى تصوير عالم مخالف لما هو مألوف، ينزع إلى الهروب من حياة الموت، إلى حياة هانئة، ممّا يجعل تصوير القبر معادلاً نفسيّاً لحياة مرتقبة، تعانق أحلام الشاعر المقموعة على أرض الواقع، حيث يقول(الزغول، س. 2004: 98):

قبري.. آهٍ ما أوسعه..!
لو يضيق لأشعر بعضَ الأمان لروحي
لو يضيق لأرشفَ هذا البياض
واسع.. كيف أمدّد لحمي به..؟
كيف أشرشر هذي الدماء
فَيُدْرِكَها في السواد..؟
أعوذ بها أن تسيح فيعطش
كنت أريد له أن يُمَسِّحَ عن فِيْهِ طعمي
أن يكتفي بي ويشبعَ
أن لا يفتِّش عن جذوة أخرى
أن يراقصني كلّ ليلة
ثم يسقط قربي

وينزع سلطان الزغول إلى رثاء ذاته، أو ما يُعرف في الشعر العربي برثاء النفس، الذي يُعدّ من أكثر فنون الرثاء تميّزاً، وأبعدها عمقاً؛ لأنّه يخالف مفهوم الرثاء المألوف الذي يعبّر فيه الراثي عن حالة الفقد، والغياب، ويطرح أفكاره المختلفة، وموقفه من الحياة.

يستمد رثاء الذات خصوصيته من نظمه في حالة الحضور الجسدي لا الغياب، فضلاً عن تعبيره عن حالة الانكسار، والتحطّم التي وصل إليها الشاعر في حياته، ممّا يجعله يشعّ بالحزن، والألم؛ لأنّه تمثّل للموت في حالة الحياة، حيث يتساوى الحضور والغياب، وتتحد الأزمنة، لتشكّل زمناً واحداً هو زمن الغياب، حيث يقول(الزغول،س.2004: 99):

جسدي ممدّد
لم يرتدِ بعدُ البياض
عيني اليسرى فُرِجت قليلاً
ويدي ممدّة
سخونتها تثيرُ
رغم أنّ الموت
قد تعشّاني قبيل الفجر
أسلمتُ قلبي
لم يجد فيه سوى
ركن شفيف للغناء
رأسي تجاه البيت في الجبل القريب
داروا بتختي.. قبّلوني
وقبّلوني..

في الجبين وفي خدودي الساخنة

فالشاعر يستدعي ذاكرته الخصبة؛ لتصوير عالم مابعد الموت، فهو خلاصة تجربة حياتية قاسية عاشها الشاعر، رسمت المعاناة معالمها، ونسجت خيوطها قطرات الدم النازفة من القلوب، فضلاً عن أنّه صورة واضحة من صراع الأنا والآخر، الذي أبدع على مرّ العصور فناً خالداً.

ويرسم الشاعر مشهداً تفصيلياً لما بعد موته، ممّا يبعث على الألم، والحزن معاً، حيث يقول(الزغول،س. 2004: 101):

قرأوا عليَّ من (يس)
والواقعةْ
وحاولوا إغلاق جفني الأيسر المفترِّ
شيئاً لا يكادُ يُلحظْ
حاولتُ أن أشكوا تدخُّلهُم إليك..
(وَلَوْ)
وصَمَتَّ لم تنبسْ ولم تحتجّ
كم غبتَ عنّي وانتظرتُك
كم كنتَ قربي غائباً
وكم حملتك في جفوني
وأردتُ أن أبكي فراقي
وكلّما أشرعتُ صوتي
صرخوا.. هلّلي.. وحِّدي

إذ يجسّد الشاعر خاتمة نصه بغائية خطابه الشعري الذي ينهض بعبء الغياب وإمكانية الحضور التي تمثل منطلقاً طبيعياً لحركة الذات الساردة

الناهضة بفعل العشق والحياة بدلاً من الاستسلام والانهيار. وهكذا فإن " من أولى سمات اللغة الشعريّة المؤثرة، وأشد فضائلها جمالاً فرادتها: كونها لغة شاعر بعينه، تجسّد رؤياه، وحلمه ، وذهوله. ولا تختلط بلغة شاعر آخر سواه. وربما كان هذا المحك مجدياً إلى حدود بعيدة في قياس شفافية الرؤيا التي تترسح عن لغة هذا الشاعر، أو ذاك" (العلاق، ع. 2013: 21).

قد نسج سلطان الزغول في قصيدة(في تشييع صديقي .. الموت) صورة تراجيدية للموت، والحياة، ممّا جعل الخطاب الشعري يسمو بتشكّل جمالي للمعنى، يتجاوز كتابة النص إلى كتابة الشعور وفق رؤيا حداثية، تنهج نهج القصيدة الدراميّة ذات الملمح السردي، والبعد السيميائي عبر العلاقات الدالة التي تنهض بلغة انزياحية تعمّق من فعل الموت، والبوح الجنائزي، والبكاء الحزين.

وفي قصيدة (الضيف) التي يهديها الشاعر إلى (عليّ) إذ فتتُه القبر، يوغل في رسم صورة حزينة لواقع إنساني حزين، حيث يقول(الزغول،س.2007: 11):

الموت
عباءة ألبّسُها
تُلبسُني
موشّحاً بكانون
بتصفيق الريح على الدرجات
حلّ ضيفاً على الجبل
الخطوات متقطّعة
الشمس تبرّدها الريحُ الشرقية

فلا ينظر إلى ضوئها أحد
لا سحب ولا غيوم
شمس وشرقيّة ودرجات حزينة
وعليّ

إنّ مغادرة اللغة لطبيعتها التعبيرية انحياز واضح لشعريّة النص، والفكرة المعبّر عنها، إذ جاء توظيف الشاعر لتقنية التجسيد واضحة، فالموت عباءة يلبسها الشاعر، وتلبسه تعبيراً عن اتحاد تام بينهما، حتى وكأنهما جسد واضح، وهذا ما يكفي للدلالة عن سوداوية الواقع، وانعدام الأفق.

لعلّ اتّكاء شعراء الحداثة على التجسيم، والتجسيد، والتراسل، والمجاز سمة واضحة في أشعارهم النازفة. لذلك نجد الشاعر يستبيح عذرية اللغة؛ ليتجه بالنص الشعري نحو رؤى أخرى وجدها الشاعر عند معايشته للواقع، ممّا جعلها تبدو غير مألوفة للمتلقي الذي اعتاد اتّصالية اللغة، ومباشرتها، كما في قوله(الزغول، س. 2007: 23):

أسِف الخريف على وداعي
حرقت أنامله الأليفة ذكريات أصابعي
وتوقدت عيناي ترقب ساحة اللغة الجديدة
لغة احتراقي في غيوم حبيبتي
شلالِ أسودِ شعرِها
دميّ المعلّقَ في انتظار ربيعها
أسف الخريف وأرجَعَتْهُ فظاظتي
جهة التوجّعْ

إنّ براعة التشكّل اللغوي للنص تقود إلى إدراك طبيعته الفكريّة، وتداعياتها النفسية، التي تجعل من اللغة قواماً آخر يخالف المألوف، فاللخريف أنامل، وللأصابع ذكريات، وهي تعابير غير مقبولة في اللغة المعجمية، لعدم مألوفية حدوثها في الواقع، لكنها في اللغة الشعريّة ذات دلالة فكرية منتجة للمعنى، تعكس فيها أنامل الخريف سيرورة الزمن الطبيعية، واتّجاهه نحو فعل الانتهاء لما تختزنه الذاكرة من أحداث، وبالتالي انتهاء الحياة الإنسانية التي جاء التعبير عنها بذكريات الأصابع.

وهكذا يسير النص الشعري الحداثوي نحو نبوءته المشبعة بلغة النزف في لحظة مواجهتها للواقع، حيث يقول(الزغول،س. 2007: 26):

أعلنت ضرع مفازتي وطناً مشاعاً
وأعاد ترتيب المفازة في دماغ البحر من عطش المفازَ
والبحارُ حرائق الصحراء إن جاءت إليها.
أنا الصديق لتلّة ترعى الخراف بشاطئ الصحراء
للعشبة المجنونة الإغواء تدفن وَمْضَها
في صدري المسحور فيها
من ... عن ... إلى...

عندما يصبح الوطن مشاعاً، تفقد الذات كينونتها، لتغادر اللغة مشروعية تراكيبها، وتنحو منحى فكريّاً، يصبح الموت بؤرته، وغاية وجوده، ممّا يقتضي تشكّل صور ذهنية تتدرج ضمن الصورة المجسّدة، ذات

الطبيعة الانفعالية، التي تشكّل مرجعية للمتلقي، يرمم من خلالها ذاكرته المتشظية في النص.

لذلك فإن لغة الشاعر تنتشي بالألم، والحزن معاً، ممّا سمح بحدوث مناجاة وجدانية للموت، وتجسيده في صورة إنسانية، تعمّق من حميميته، كما خطابه للموت (الزغول،س.2007: 30-31):

آه .. اقترب يا موت، شُدَّ أصابعي
لتثير صَحْواً في حياة ضُمِّحَتْ
بالانكسار
أيان أمضي والدُّمُسْتُقُ سَيِّدٌ
إن قال نال؟
وطني ينام على ذراعي
والحلم موقوف

وما تعطيل فعل الحلم إلا صورة مباشرة لمرارة الواقع، فيصبح الموت رفيقاً، والذكريات معطلة، إذ شخّص الشاعر الموت، وخاطبه مخاطبة العاقل، ممّا أثرى النص الشعري ومنحه قدراً الإثارة الوجدانية ذات الطبيعة الحزينة.

3 ـ حداثة الصورة.

إنّ الصورة وسيلة المبدع لبلوغ مراميه، وتحطيم نسقية الخطاب، والارتقاء به لأعلى درجات الشعريّة. وجاء النقد الحداثي ليوسّع من مفهوم الصورة " بحيث لا تقتصر على الإشارة للجانب التخييلي المجسّد للمجردات بطرائق حسّية تمثيلية، بل تشمل شبكة من الإجراءات التي تمتد من توظيف العناصر السرديّة الحركيّة إلى تنمية أنماط من الصور النحوية، وهي صور

تعكس كفاءتنا في بناء الواقع حسب نماذج صورية متنوعة إلى جانب الصور الإيقاعية "(فضل، ص.2002: 49) .

إنّ تميّز الخطاب الشعري، وخصوصيته تنطلق من قدرة الشاعر على التلاعب بالألفاظ، وتشكيل بنية خاصة به، وهذا لا يتم بلغة عادية، ولا بصورة تقليدية مألوفة، لذلك جاء تشكيل الصورة جزءاً مهماً في بناء النص الشعري، وإضفاء سمات إنسانية عليه، تمنحه نضجاً فكرياً وفنياً واضحاً، وتجعله أكثر التصاقاً بالشعريّة، وبعداً عن النثرية، وبخاصة إذا جاء التشكيل الاستعاري للنص متحداً مع عناصر الشعريّة الأخرى كالتكرار، والإيقاع الداخلي المتمثل بتكرار حروف معينة، تتخذ طابع الانتهاء.

يتجاوز الشاعر في نصوصه مشهدية الموت إلى عشقيّة الحياة كما يتمناها؛ لذلك نجده يمعن في التجسيد، الذي ينقله من جحيم الواقع إلى أحلامه النازفة، كما في قوله(الزغول،س. 2007: 38):

في الساحل الشرقي من قلبي
ترعى خرافٌ في هدوء واتّزان
في الساحل الآخر.
تغلي براكين البقاء
تشرئبّ الحالكات من الغيوم
وأتقي منها بكهف ينبض
بالحبّ
بالألوان
بالتاريخ
بالأشباه...

إن إبداع الصورة الشعريّة، يتطلب من الشاعر أنسنة المحسوس، والذهني؛ لإثارة حاسية المتلقي نحو النص، ووضعه في مساره الإبداعي الذي يحتفظ للغة ببكارتها، وألقها، دون أن يجعلها وسيلة للتعبير فقط، ممّا جعل الشاعر يوغل في رسم صورة حلميّة للمشهد، تتحرر فيها الألفاظ من طواعيتها المعهودة؛ لتلامس أفقاً خصباً عند المتلقي يعيد للذات حياتها ، ويذكّرها ببعض مقومات وجودها.

ولعلّ هذا الانتماء الوجداني للصورة، جعلها أكثر قدرة على التفجّر الانفعالي، والبوح الإيحائي،" فالشاعر من غير أن يعي كلّ الوعي، يمتزج عالمه الظاهري وعالمه الباطني في لحظة شعوريّة، وأخرى لا شعورية، لأن هناك مناحي مترسبة في أعماق الوجدان، يستطيع الشاعر الفنان أن يجعلها تبرز مخترقة ستار الوعي(عيد،ر. د ـ ت:42).

يلتقط سلطان الزغول أفكاره من واقع الحياة، ممّا جعل صوره ـ مهما حلقّت في الخيال ـ لا تغادر منبعها الحياتي الخصب الذي تنبي عليه مشاهد الحياة اليومية، وهكذا تنبني أفكار الشاعر لتعكس واقعاً نازفاً، تسوده مأسوية الحركة، وقمعية الفعل، كما في قوله(الزغول، س. 2007: 44):

يشرق بالندى
كم نحبّه
كم نقتله!!
كلّ صبح يبكي على آثامنا
يمدّ أذرعه القصيرة

لِحَضِنْنَا

ندوسه ونمضي.

لقد أثرى الجانب التأملي التجربة الشعريّة لسلطان الزغول، فنجده يخلّص مضامينه الشعريّة من التقليديّة، والمباشرة، ليصيغ لغته الخاصة ذات الطبيعة الحوارية، ممّا أضفى على شعره درامية واضحة، ونزوعاً إلى الحركة التي ترتقي إلى التجسيد، وتفعيل جذوة الخيال، كما في قوله(الزغول، س. 2007: 72):

صحوت على جثتي تسأل القبر عنّي

كنت أصعد سلّما من عبير أليف

ربما الدفلى اختلطت به

وسألت العبير..

عن شجري

فتمطى العبير..

لم يُجبْ.

إنّ انفلات صور الشاعر من مألوفيتها إلى دوائر الموت التي تُحيل مأسوية الواقع، وضياع الشاعر فيه، ممّا يؤسس لشعرية نصيّة قائمة على السرد، والاستعارة التي تضيء جوانب النص، وترفد الذاكرة الشعريّة بروح جديدة.

وتبدو التجربة الوجدانية أكثر وضوحاً في شعر سلطان الزغول، إذ تنفجر العواطف، وتنساب الكلمات في مجرى مخالف لطبيعة تشكلّها، ممّا يُكسبها أبعاداً نفسيّة وإنسانية خصبة، تعتمد على الخيال، وإمكانات

اللغة الإيحائية، إذ تكشف الصورة عن حالة الضياع التي يحياها الشاعر، كما في قوله(الزغول، س. 2007: 58 ـ 59):

ملّ المحارُ
أتعبهُ سكون الرمل
ألا يدٌ..
تعدو على شفة المحار
تدنو به
من سندس الشمسِ..؟

فشعريّة الصورة مستمدة من طقوسها الحزينة التي تجعلها قادرة على التفجّر الدلالي، والبوح الإيحائي، إذ تغدو الصورة " بأبعادها الثلاثة من مادة وشكل ودلالة، هي التي تمثل وحدته البنيوية، وتخلق واقعه الجديد"(فضل، ص. 1997: 11).

4. حداثة الرؤيا

تعدّ الرؤيا أهم منجزات الحداثة في القصيدة العربية، إذ تكتسب أهميتها من فاعلية تأثيرها، وغناها بالتعارض والشمول والقلق (العلاق،ع. 2013: 16). وإذا كانت الرؤية هي من فعل الباصرة في حالة اليقظة، فإن الرؤيا هي من فعل التخييل في أثناء الحلم (ريان، أ. 2000: 65).

وتُضفي الشعريّة الألسنيّة على مصطلح الرؤيا" دلالة تعبيريّة خاصة، تنزع إلى درجة محدودة من التجريد العقل، وتشير إلى ما يمكن لنا تعريفه

بصفة عامة على أنّه تضافر مجموعة من التقنيات التعبيريّة المتّصلة ببعض المستويات اللغويّة، خاصة النحويّة، وطرق الترميز الشعري المعتمد على القناع، والأمثولة الكليّة" (فضل، ص. 1998: 159 ـ 160).

لذلك فإن الرؤيا هي مركز إشعاع مهم في أي نص شعري، إذ لا بدّ من وجود رؤيا مسبقة واضحة الملامح في وجدان المبدع؛ ليتمكن من الانطلاق، و بناء نصه الشعري وفق نسق إبداعي خاص، يتّسق مع هذه الرؤيا، ويحاول الوصول بها إلى المتلقي. وهذا ما جعل شعر سلطان الزغول يتشح برؤيا الموت وانفلاتاته الوجدانية، إذ يقترب بشعره من وهج اللحظة الحاضرة ليحلق في فضاء الوجود، كما في قوله(الزغول، س. 2007: 64):

في زرقة قبل الموت
أسألها عن حالي
تتوّهج ثانيةً
تخبرني أنّي أفضل مَنْ عشِقَتْ
وتموت.

إنّ هذا الانتماء لعالم الموت منح رؤيا الشاعر دلالة خاصة، إذ تشكّل إيحائية الموت محور التحولات الدلالية المتحكمة في بناء النص، ممّا أسهم في أخرج النص من المباشرة والتقليدية، وجعله ينفتح على عالم الشعريّة.

ويستمر الشاعر في بعث الصوت الملحمي القادم من التراث؛ لينسج من خلاله بنى نصه الشعري، بروح متوهجة الرؤى، ومنتميّة لنموذج ثابت من التضحية، والفداء، تتسق من خلاله الرؤيا؛ لتنبعث في قالب إبداعي، مفعمة

بحُلمية المستقبل رغم مرارة الواقع، ممّا يمثل لحظة التحرر، والانعتاق من تبعات الموت القاسية ، حيث يقول (الزغول،س. 2007: 87) :

ليوسفَ في الجبّ
تُشرقُ أشرعتي في البحر
وتغادر صوب الحلم
أنسى أن أُنْزِلَ حبلاً
ينشلُهُ من ظلمائهْ.
صوبَ قلاعٍ قاسية
أغدُرُ بالبحرِ
يسامحني كي أمتدّ
أفردُ سلطاني فوق القهر
أُعلن عن فرح للعميان

ويُبرز الشاعر أهمية الرؤيا في بعث الأمل، ومحاولة التخلص من أثقال الواقع، وإنتاج زمن خاص به، يستمده من خياله ، ممّا يجعل القدرة على الاستشراف أمراً ممكناً في ظل رؤيا جامحة، تمنح الشاعر القدرة على المواجهة، كما في ؤقوله(الزغول، س. 2007: 33):

أركبُ صهوة الحلم
فتنزاح التآويل عن سقف الليل
ويعود العشب إلى الربيع
والنحل إلى الشفتين
والبدر إلى الصحراء

والنور إلى القلب
أمرر صوتي في شرفات النوّار
فيقظني الدحنون

لعلّ هذا التوظيف المضاعف للفعل المضارع(أركب، تنزاح، يعود، أُمرر، يوقظني) له ما يعلله من قوة الدلالة، والإيحاء بالزمن، والتحول من زمن إلى آخر أكثر قدرة على الحياة، ممّا يُبرز دور الزمن في التعبير عن رغبة الشاعر في استعادة فعل الحياة من جديد.

ويظهر هذا الأمل في درامية واضحة، تبعث الحياة وسط ركام الموت، إذ يلجأ الشاعر للطبيعة؛ لتمنحه بعض الحياة، ممّا يجعل الشاعر يستند في خطابه الدرامي إلى أدوات فاعلة تسهم في صياغة مشهده التصويري، وتحفر مادتها التعبيرية في ذهن المتلقي الذي يتماهى مع هذه الأحاسيس وكأنّها نابعة من وجدانه، كما في قول الشاعر(الزغول، س. 2007: 72 ـ 73):

صحوت على جثتي تسأل القبر عنّي
كنت أصعد سلّما من عبير أليف
ربما الدفلى اختلطت به
وسألت العبير ..
عن شجري
فتمطّى العبير..
لم يُجبْ
كان لي شجر غارق في الرصيف
كنت أمتدّ به

أسأل الشارع عن مغزى الطريق
كنت ريّان الشباب
كنت ظلّ الشجر

إذ تنشط لغة النص لبناء الصور ذات المعنى الدال على المعاناة، بعدما أصبح الارتداد للذات سمة واضحة في هذه الدرامية التي يُشيعها الديوان، وكأنّها صورة لوجود لا تنتهي معاناته، بعدما انهارت القيم، وأضحت المأساة سمة عامة يحاول الشاعر البناء عليها؛ لينهض من جديد.

الخاتمة

لقد كشف سلطان الزغول في تجربته الشعريّة عن خطاب مكثف، يستثمر المخيلة؛ لإنتاج صور ذات طبيعة تأملية، تنهل من معين تجربة الحياة، ومعاناتها المستمرة.

فنصوص الشاعر اشتعالات ذاتية تكشف عن رؤيا شعريّة واضحة انتظمت الكلمات لصياغتها، وبيان طبيعتها الانفعالية التي صدرت عن تجربة حياتية، عنوانها الألم، والضياع.

لذلك فإنّ الرؤيا هي مركز إشعاع مهم في نصوص الشاعر، إذ لا بدّ من وجود رؤيا مسبقة واضحة الملامح في وجدان المبدع تمكنه من الانطلاق، وبناء نصه الشعري وفق نسق إبداعي خاص، يتّسق مع هذه الرؤيا، ويحاول الوصول بها إلى المتلقي.

إنّ فاعلية الذات المحطمة واضحة في نصوص الشاعر، فهي ذات منتجة للألم، باعثة على الحزن، لا تقيم وزناً للواقع، ممّا عكس حالة الدهشة، والحيرة معاً من استمرار المعاناة، بعدما وصل الشاعر إلى حالة ضياع كاملة جعلته يبدع صوراً خاصة، ومعجماً لغوياً ذا صلة وثيقة برؤيا متوهجة.

المصادر والمراجع

- جابر، يوسف.1991 قضايا الإبداع في قصيدة النثر، ط1، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق.
- درو ،اليزبث. 1961 الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة محمد إبراهيم الشوش، د ـ ط، مكتبة منيمنة، بيروت.
- رفقة، فؤاد. 1973 الشعر والموت، د ـ ط، دار النهار للنشر والتوزيع.
- ريان ،أمجد .2000 صلاح فضل والشعرية العربية، ط1، دار قباء، القاهرة.
- الزعبي، باسم، وآخرون. 2014 معجم الأدباء الأردنيين (في العصر الحديث)، ط1، منشورات وزارة الثقافة، عمّان.
- الزغول ،سلطان. 2007 ارتعاشات على جسد الخريف، ط1، دار أزمنة للنشر، عمّان.
- الزغول ،سلطان. 2004 في تشييع صديقي .. الموت، ط1، دار أزمنة للنشر، عمّان.
- شورون، جاك. 2000 الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسن، مراجعة وتقديم إمام عبدالفتاح، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عمّان .
- عصلة ،أحمد بكري.2000 الموت في الشعر العربي الحديث، ط1، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت .
- عمر، أحمد مختار.1997 اللغة واللون، ط2، عالم الكتب، القاهرة.
- عيد ،رجاء. د ـ ت دراسة في لغة الشعر(رؤية نقدية)، دار المعارف، الإسكندرية.
- فضل، صلاح. 2002 تحولات الشعريّة العربية، ط1، دار الآداب، بيروت.
- فضل ،صلاح . 1997 قراءة الصورة وصورالقراءة، ط1، دار الشروق، القاهرة .
- العلاق ،علي جعفر. 2013 في حداثة النص الشعري، ط3، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان.

Modernism Phenomena in Sultan Zghool's poetry

Dr. Imad Abdul Whhab Al-Dhmmor
Balqa Applied University
Amman University College

Abstract

This study is a trial to reveal modernism Phenomena in the Jordanian Poet, Sultan Zghool's poetry with all its fertile dimensions, its artistic reflections and what poetry produces to rescue the besieged ego in an attempt to reach confrontation with one's self and the outer world by expressing gradually the poetry found in the sub-concious, breaking the silence frontier so as to merge human dimensions that are more glittering and more related to real situation.

In his second collection of poetry, (Shiverings on Autumn's Body) issued in 2007, Sultan Zgohul followed what he planned in the first collection (Funeralizing my friend, Death) issued in 2004. He continued the uprising of the effectiveness of the linguistic item, a purposeful rebel against the expressive Lingustic form, in order to provide his recipients with enjoyment and surprise after having gone far away from the familiar linguistic structures to touch the spiritual side of the language and its expressive semantic forms.

The poet's fondness of the roared rhythm of life and his wish to part from this real situation gave him a clear vision that enabled him to grant his vocabulary the impression of the semantic explosion and the compassionate appeal in addition to acknowledge the depths of life and to deal with Death as a real life.

Key words: *Modernism, Sultan Zghool, Poetry*